الحضارة الحثية

مراحلها العقلية

والاجتماعية كما تبدو وتستخلص من آثارها

بقلم قيصر صابر

عضو جمعية العاديات السورية

تمهيد

بعد ان اتينا على ملخص تاريخ حروب الحثيين وفتوحاتهم يجمل بنا ان ننتقل الى تبيان سائر ما وقفنا عليه من فروع حضاراتهم وتطوراتها وهدفنا في ذلك ان نبين مكانة تلك المملكة العهيدة التي تفوقت على كثير من ممالك الشرق القديمة بمنتجاتها الصناعية والفنية وفنونها وآدابها وشرائعها ومعتقداتها وليس لنا من رائد في هذا الميدان غير مكتشفات العلم التي يصح الركون اليها

ولعل اجل مظهر اطلعنا عليه من مظاهر تلك الحضارة العهيدة هو ما جاء في رواية استيلاء العاهل اشور ناصربال الثاني على كركميش المنقوشة على حجارة تصوره حيث قال : « في الثالث من شهر نيسان سنة ٨٧٦ ق.م غادرت كالح وعبرت نهر الدجلة قاصداً مدينة كركميش في بلاد الحثيين فاجتزت نهر الفرات على ارماث مكسوة بالجلود ولما اقتربت من كركميش فرضت على سنفارا ملك الحثيين عشرين وزنة من الفضة وحلى عديدة من الذهب ومائة وزنة من النحاس ومائتي وزنة من الحديد والقصدير وآلات حديدية ومحاسة كنوس وحراب وسلن وماشا كلها من المعدات الحربية واثاث بلاط الملك وغنائمه واشياء كثيرة لا مثيل لها في جودتها وجمالها واثاثاً من ابنوس واعراشاً من خشب السنديان ومائتي امرأة رقيقة وانسجة من صوف ومركبات مرصعة بالعاج وتماثيل من ذهب » . فيدلنا ذلك كله على الاوج الرفيع الذي بلغته الحضارة الحثية في الثراء والعمران ورقي الصناعة مما خلب لب ذلك العاهل الاشوري وحمله على الاقرار رغم انفته وكبريائه بأنه لم يكن قد رأى مثيلاً لها في سائر ممالكه على ان ذلك ليس الا عبارة عن وصف

(ش ٦)

نقش حجري نافر على الصخر يمثل اله النباتات الفروي كما فهم من الكتابة المحفورة قبالة وجهه وهو محمل بمناقيد العنب. وقد أمسك بيده اليمنى سنابل الحنطة ووقف امامهُ ملك كبير وقفة التضرع والابتهال

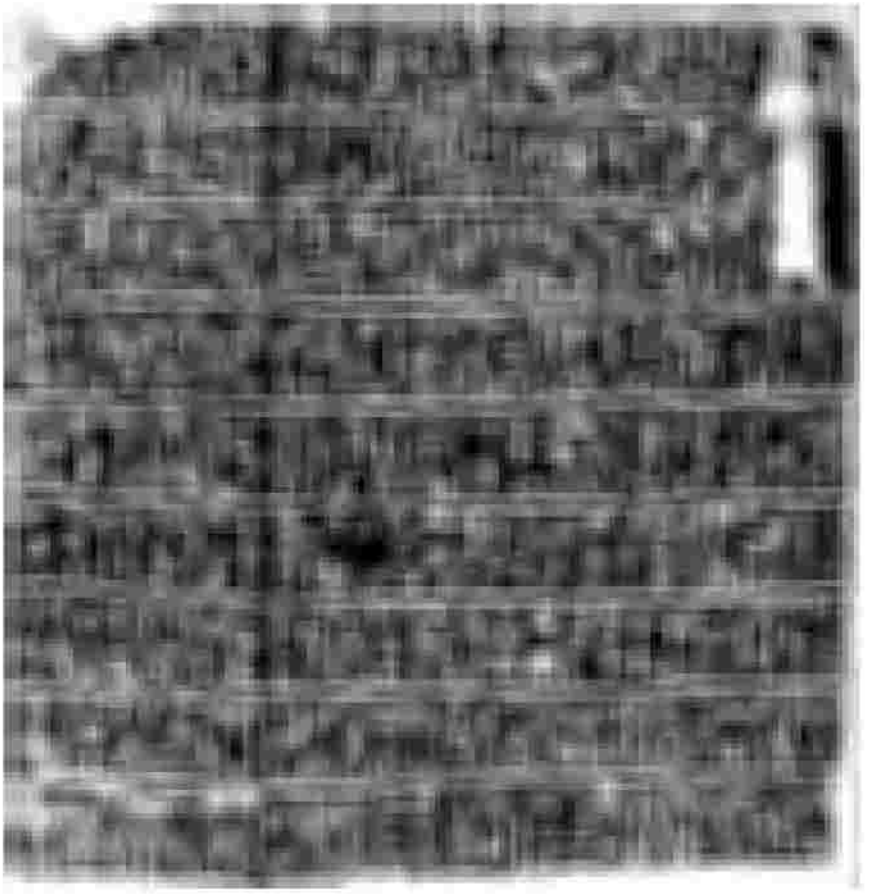

(ش ٤)

الكتابة الهيروغليفية الكبيرة المكتشفة في كركيش وهي تعد من ارقى انواع الكتابات الحثية وترقى الى القرن العاشر ق. م. وهي اليوم في المتحف البريطاني

سوف نفس حفائقه بدراسة ما اكتشف من آثار تلك الحضارة القديمة وباستقراء نقوشها البارزة في اساطين الاحيال التي اقامها وترى بصورها الراسخة في بطون الاحجار طراز معيشة تلك الامم في يومها ومصانعها ومعابدها ولعلنا نستطيع ان نتبعها حتى اعماق قبورها

الكتابة

لا مرية ان معظم هذه المعلومات انبثقت من حل رموز الكتابات الحثية فينبغي اذاً ان نجعل هذه الكتابات قطب دراستنا ونوجه اليها اهتمامنا . فيما نراها في اول طورها كناية عن اشارات مصورة تعرب عن الافكار على شاكلة سائر الكتابات القديمة لا نلبث ان نشاهد الرموز تحل مكان الصور فيدلنا هذا التطور على ازدياد معارف القوم على توالي الايام واتساع حلقة افكارهم. وقد عرفنا لغة الحثية نوعين من الحروف الكتابية الهيروغليفية والمسمارية ونعني بالاولى حروف الكتابة المقدسة التي كانت خاصة بالحفر والزينة فنقشت المسلات والاقصاب وجدران المعابد والقصور وقد احتفظ الكهان باسرارها فكادت تبقى طلساً لا يحل وحروفها مؤلفة من اعضاء الجسم كافة ورؤوس بعض الحيوانات والعصافير واشياء شتى على مثال الهيروغليفية المصرية بيد انها غير مقتبسة منها بدليل انها تمثل المتاع المخصص بالحثيين كالعمال ذي الرأس المكوف ورؤوس بعض الحيوانات المحلية وغيرها من العوامل التي تتضافر على اثبات استنباطها في آسيا الصغرى. وقد كانت تكتب طوراً من اليمين الى الشمال وتارة من الشمال الى اليمين فيعرف مبدأها من شكل اتجاه رؤوس الحيوانات المصورة وهي تقرأ غالباً من أعلى الى أسفل وفي بعض الاحيان من أسفل الى اعلى ويلوح انها تمت الى عهد ارقى من تاريخ استعمال الكتابة المسمارية لانها تكاد تصور الاشياء المراد بيانها تصويراً . اما الكتابة المسمارية فحروفها مؤلفة من رؤوس المسامير تشبه علامات الالحان الموسيقية ولكنها اكثر منها تلاعباً . وقد تيسر للعالم الأثري هروزني التشكوسلوفاكي ان يهتدي الى حل بعض الغازها الغامضة بالاستنتاج من بعض علامات فيها تدل على معان معينة في سائر اللغات السامرية والبابلية من جهة وبمقابلة بعض نصوص مترجمة من ألواح بوغازكوي باصلها الاكادي وكانت اللغة الاكادية في ذلك العهد بمثابة لغة دولية تدون بها بنود المعاهدات ونصوص الطب والفلك وسائر العلوم

وقد وجدنا الخطوط القديمة كثيرة التعقيد ثم رأيناها تميل الى البساطة شيئاً فشيئاً مع تطور الحضارة وكانت تنقر على الآجر والاحجار الصم بارزة وتعارق على الصفائح المعدنية من الوراء فتنشأ من جهتها الاخرى وقد بانت الغازها المغلقة قريبة الحل بفضل جهود العلماء ومساعيهم المثمرة

أحوالهم الاجتماعية

لقد تسنى لنا الوقوف على أغلب تقاليد الحثيين وعاداتهم وطرازمعيشتهم بالاقتباس من الصور المنقورة في الصخر وبقراءة تفسير النصوص الكتابية التي توافرت لدينا فتبيّن لنا انهم عاشوا منذ فجر نهضتهم بالحروب والفتوحات وكانوا يعنون ايضاً بتربية الماشية ويميلون الى التوسع في الاراضي الخصبة بقصد استغلال ثروتها الزراعية ثم أخذوا يستخرجون المعادن ولا سيما الحديد من مناجم آسيا الصغرى وصار عندهم نقود يتبادلونها في قضاء حاجاتهم وكانوا على الأغلب يحلقون لهامهم أما الملوك وبعض الاعيان فكانوا يتأنقون بتركها وبرسلون غدائرشعرهم على ظهورهم مضمخة بالطيب وكانوا يميزون عن سائر الشعوب بأنوف قنية. أما ملابسهم فكانت بسيطة. كان الرجال يرتدون قمصاناً قصيرة يشدها زنار عريض الى وسطهم فتكشف عن الركب غير ان الملوك والكهان كانوا يرتدون في بعض الاحيان ألبسة خاصة طويلة الاهداب عريضة مثناة كثيرة الزخرفة وكانوا يحتذون نعالاً طويلة معكوفة الطرف وهي من أخص ميزات لباسهم. أما النساء فكنّ يتأنقن بارتداء أثواب منسوجة من أقمشة رقيقة شفافة تبدو من خلال طياتها عن شكل أجسامهنّ وبروز نهودهنّ وكان التزين بالحلى مثل الأساور والعقود والاقراط والأحراز الثمينة شائعاً عندهنّ

وكان للمرأة الحثية شأن كبير في المجتمع فقد شاركت الرجل في أدق أعماله وخاضت الحروب الى جنبه واعتلت العرش وتقلّدت المناصب وأحرزت اسمى الالقاب وكان لها منزلة مكرمة وحقوق ممتازة تنبطها عليها أرقى نساء اليوم على انهُ لم تكن الى ذلك كله سعيدةً في حياتها الخاصة اذ قلّ بينهنّ من ليس لها شريكات من الرقيقات في بعلها حيث لم يكن أحب الى الحثيين ذوي الانوف الكبيرة من ان يقترنوا ويعاشروا اكبر عدد ممكن من الرقيقات الجميلات الى جانب زوجاتهم الشرعيات حتى اشتهرت بلادهم بكونها مهد الشهوات واللذات

وقد كان الملك سيدهم المطلق يستمد سلطانه من الآلهة التي كان يمثلها على الارض فكان مطاعاً لانهُ رأس الديانة والجيش والقضاء وكان يحمل مع التاج وشارات الملك لقب تلابارنا اي الملك الحثي الأعظم كما ألمعنا الى ذلك في سياق الحديث. وكان العرش وراثيًا ومن حق الابن البكر فاذا لم يكن ثمّ ولد للزوجة الشرعية تبوأه الأدنى من ذوي القربى ويسري هذا الحق على النساء لا سيما اذا كان ولي العهد قاصراً فتنصب الملكة وصية عليه وتحمل التاج وتلقب بأم الاله وكان من حقوقها أن تشترك في عقد المعاهدات وقد رأيناها في بعض النقوش الى جانب الملك في الحفلات والطقوس الكبرى

وكان الشعب يغالي في احترام ملكه وينزله من نفسه منزلة الآلهة لاعتقاده يقيناً انهُ سائر

بعد الممات الهاً مثل آبائه وأجداده فيدفع له ضريبة أرضه صاغراً كما ان سكان الاقليم كانوا مكلفين ان يدفعوا علاوةً على ضريبة أراضيهم العائدة الى مليك مقاطعتهم ضريبة سنوية لملك الاعظم وعند ما ينتقل هذا الملك الى حياة الخلود كانت تحد عليه رعيته حداداً عظيماً فتمزق ثيابها وتغلق المعابد وتكف عن الافراح والاعراس وتسكب عليه دموعاً سخينة اكباراً لمقامه وحزناً على فقدانه

الرمائر

كانت معابد الحثيين تضم عدداً لا يحصى من الآلهة وقد تسنى لنا ان نتعرف الى بعضها من الاسماء والنعوت التي كانت تحفر غالباً على اكتاف اصنامها. فقد كان لكل عنصر من عناصر الطبيعة اله يمثله حيث اعتاد الحثيون ان يؤلهوا كل قوة يخشون بأسها على الأرض. فكان عندهم آلهة النار والهواء والمطر والشمس والذرى والصواعق ولكثير غيرها من عناصر الطبيعة على مثال سائر الديانات الشرقية القديمة ولا سيما ديانات الهند التي تشرب الحثيون كثير من عقائدها الآرية والديانة السومرية التي اقتبسوا منها معظم طقوس عبادتهم

زد على ذلك انه كان من تقاليدهم ان يبقوا على الممالك التي يفتحونها عقائد سكانها الدينية وعاداتهم المحلية ويضمون آلهتها الى هياكلهم ويراعون حرمة اعيادهم خلافاً لسائر الدول القديمة التي كانت تحمل المغلوبين على انتحال ديانتها. فتجمع لديهم من جراء ذلك مئات من الآلهة حيث كاد تكون لكل مدينة آلهة محلية يعبد فيها بجانب الآلهة الكبرى وكانت تختلف رتبة تلك الآلهة المحلية باختلاف مكانة المدينة التي تنتسب اليها فكانت مثلاً مدينة ماريتا الكبرى تحت حماية الهة الشمس التي تأتي مع زوجها الاله الاكبر واهب الحياة في طليعة المعبودات ثم يليها سائر طوائف الآلهة بمراتب متتابعة بعضها تلو بعض وقد أوتيا الآثار لكل تلك الآلهة هيئات وصفات خاصة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً

قلنا في ما سبق ان الملك هو رأس الديانة لانه يمثل الآلهة على الأرض وهو كاهنها الاكبر يعاونه في وظائفه الدينية رهط من الكهان بمراتب متفاوتة تقتصر وظائفهم على خدمة الطقوس وقد اطلعنا في لوح على وصف طقوس الاعياد لسردها على علاتها تاركين للقراء ملاحظة وجوه التشابه بينها وبين اصل طقوس بعض الاديان المعاصرة

تؤم الجماعات المعبد يوم العيد فتقام الموائد المقدسة وتتلى الاناشيد وعندما يكتمل عدد المؤمنين يرتدي الملك ثياب العيد الخاصة ويتبرج بالحلى الطقسية ثم ينتقل من قصره الى الهيكل باحتفال مهيب وعند اجتيازه عتبة فناء المعبد يغسل يديه في حوض الماء المقدس ويحرق البخور حوله ويلج تدس الاقداس مطهراً فيسجد تخشعاً ثم يتلو اريكته فتتقدم عندئذٍ قرابين اللحوم الذكية وتصف على الموائد المقدسة المغطاة بفوطة بيضاء وتراق فوقها الخمور. فيأخذ محله في صدر المائدة

الكبرى ويجلس الاحبار والكهنة عن يمينه وشماله بعد ان يغسلوا ايديهم ويضعون قوطاً على رؤسهم ويأخذون معهُ في تناول الاطعمة المقدسة التي تتخللها بعض رموز تمثيلية وتلاوة بعض التسابيح . ينطبق ذلك كلهُ على طقوس الاديان السامرية والاكادية ويجعلنا نتيقن ان جميع اديان العالم مقتبسة طقوسها بعضها من بعض

اما صلواتهم فقد كانت عبارة عن تضرعات الى الآلهة من اجل طلب التمتع بملاذ هذه الدنيا وشهواتها مع الاشادة بمديحها وهنالك صلاة أشبه بتزاهير التوبة تتلى في حال الخطيئة . ويلوح ان السحر والشعوذة كان لهما شأن خطير في معتقدات الحثيين . فقد ثبت انهم كانوا يؤمنون بضروب السحر وتأثير الطلاسم وقد تبطنت عقائدهم الخرافات والاوهام السخيفة . ودليلنا على ذلك ما عثر عليهِ في حفريات بوغاز كوي من الاكياد من خزف مغطاة بخطوط وشعوذات من شأنها ان تدفع الشرور والبلايا عن حامليها كما تبين من تفسير لوح وهو ان الوضع عندهم كان يجري على مقعد خاص يأتون بهِ من المعبد عند ما يبدأ المخاض . فاذا تحدش جسم المرأة بخشب ذلك المقعد في اثناء الوضع او كسر المقعد تحتها يفسر ذلك بان المرأة نجسة فيتحتم عليها ان تمر بسلسلة مراسيم شاقة لتطهير نفسها . قس على ذلك شتى انواع المعتقدات التي يسخرها العقل . وقد أرتنا النقوش البارزة على جدران المعابد رسوم قصص خيالية لها علاقتها بديانتهم مثل الرسم الذي يمثل عراك الآله الاكبر مع حيه رقطاء ونقش آخر يجسم لنا الغواية في رسم امرأة متصفة بالعري وغير ذلك من النقوش التي سنمر بها عند درس الآثار والفنون الحثية

ولعل اغرب ما في خرافاتهم قصة تلخص باختفاء الآلهة تلاينو عن وجه البسيطة غضباً وانتقاماً من البشر مما ادى الى اشراف الدنيا بامرها على الهلاك لحمل مزروعاتها والنحط الذي اصابها . فعقدت الآلهة اجتماعاً كبيراً قررت فيهِ ان توفد العقاب للبحث عن اخيهم تلاينو المختفي فجاب العقاب الفيافي والقفار ورجع صفر اليدين مما حمل الآله الاكبر على ان يتحراه بنفسه فجاب مساء كذلك وكانت النحلة اعرف المخلوقات بمخبئه فأمرتها الهة الشمس ان تذهب اليهِ وتلدغهُ في يديه ورجليه ففعلت النحلة ما أمرت بهِ وتأثر تلاينو بلذعها فارتدع عن غيهِ وعاد الى الارض فعادت معهُ الحياة الى مجاريها

ويجدر بنا قبل ان نختم موضوع الديانة ان نورد وصف لوقيانوس اليوناني لمعبد ادركه بجوار كركيش في القرن الثاني للميلاد مبني على طراز حثي يساعدنا على معرفة ما كانت عليهِ معابد الحثيين في قديم الزمان . فقد شبههُ بهيكل سليمان في اورشليم وقال انهُ كان مؤلفاً من دار خارجية وهيكل داخلي يحوي قدس الاقداس ويفصله عن باقي المعبد حجاب كثيف على جانبيه عمودان مخروطيان وفي الدار الخارجية مذبح كبير من النحاس وعلى شماله صورة الهة ومن

(ش ٨)

حجر بارز النقش الحجم (٩٤ر. × ١ر٧٧ × ٩٣ر. × ١ر٢٧ × متر) اكتشف في قلعة حلب عام ١٩٣٠ ونقل الى متحفها عليه معبودان بجنحان يرفعان على قبضتيهما قرص الشمس داخل هلال وتدل هيأتها على انهما يحلقان به في اجواز الفضاء وهو من الآثار الحثية التي تغلب عليها تأثير الفن الميتاني

وراءها حوض ماء فسيح كان يستعمل فيه السملك المقدس وفي داخل الهيكل قرص للشمس وتماثيل آلهة شتى معظمها على شكل الآلهة المكتشفة في حفريات بوغاز كوى منتصبة على اسد او على ظهر ثيران

القوانين

عثر بين الواح بوغاز كوى على مجموعة قوانين ترتقي الى سنة ١٣٥٠ ق . م . مشربة من روح الديانة الحثية فعني بترجمتها الطاء هروزني وزعرن وفريدرك ولما كانت تضم نحواً من مائتي مادة لم نر بدًّا من الاقتصار على تلخيص المهم منها

فقد قسمت بوجه العامة الى قسمين . قسم يبحث عن حقوق افراد الشعب وفروضه تجاه اوليائه والآخر يتعلق بملكية الاراضي والكروم وهي تعد من القوانين الشديدة ولاسيما ما يتعلق منها بالتأمين على واجبات الرعية تجاه مليكها وممثليه من رجال السلطة كما انها تحظر البت بحقوق اصحاب الاراضي الزراعية وتعين بعدل العلائق بين ارباب الصناعات وعمالهم

واذا تبسطنا في الحقوق المدنية نرى في المجتمع طبقتين : الاحرار والعبيد . اما طبقة الاحرار فقد شدد القانون في صيانة حقوقها بخلاف طبقة العبيد التي عبث بحقوقها حتى أبيح حرمة اعراضها . مثال ذلك اذا تزوج رجل من عبدة او ساكنها لايكلف دفع مال اما اذا عقد خطبته على فتاة حرة فيترتب عليه ان يدفع الى أهلها مهراً حتى اذا نكث بعهده يبقى لها حقًّا مكتسباً . وكانت طريقة الزواج عند الحثيين على نوعين فتى الاول تلتحق المرأة بعلها وفي الثانية يساكنها وهي في حظيرة اهلها وكان منذ القديم الزواج من الاخوات وبنات العم وبنات الخالات ومن سائر الاقربين محظوراً وفي حال وفاة الزوج يتحتم على اخيه او ابيه ان يقترن بارملته وليس في ذلك القانون نص على الطلاق على انهُ ينهي الوالد عن طرد ولده او ابنته ما لم يتكرر منهما ذنب خطير حتى اذا اختلس الابن اباه لايعد سارقاً . اما الملكية فكانت مصونة بحماية الآلهة تشهد مراقبتها الكهان وكانت تنتقل بحكم الطبع الى الابناء بعد وفاة الآباء وفاقاً لمراسيم تجري في المعبد مقابل أجر زهيد . اما المبايعات وفراغ الملكية من الغير فكانت تستوجب حفلات باهظة وتستلزم تضحية لماج في الحقل او في بقعة الملك المراد بيعها ولم يكن يستثنى من تكاليف هذه المعاملات غير الكهنة وبعض قيان المعابد . وكان نظام الاقطاعات شائعاً حيث نرى كثيراً من اراضي الخراج يقطعها الجنود وسائر الذين يؤدون خدمة جليلة الى الملك فتجعل لهم غلتها رزقاً يتوارثونهُ على اجيال متعاقبة . ومما يبحث عنهُ القانون الحثي تعيين اجور العمال التي يفهم منها أن الحداد والخزفي والنجار وكل معلم صنعة كان يتقاضى اجرة تقدرها عشرة مثاقيل من الفضة اذا كان حرًّا وستة اذا كان عبداً . وقس على ذلك بدل ايجار العقارات والاشياء المعينة وسعر الحاجيات الثمينة مما يضيق بحثنا عن استيعابه

اما فيما يتعلق بقانون الجزاء فقد كانت عقوبات الجرائم من اغرب ما سمعت به اذن فقد كان في التقديم بحكم على القاتل أن يقدم لاهل القتيل اربعة رجال عوضاً عن المفدور به اذا كان حرًّا وعبدين فقط اذا كان عبداً ثم استعيض في بعض النصوص المتأخرة بدية من الفضة على انهُ في حال اختفاء الجاني تكون البلدة التي حدثت فيها الجناية مسؤولة بمراضاة اهل القتيل وكان عقاب الاختطاف والاعتداء على العفاف اشد من ذلك هولاً اذ ليس لهُ من جزاء غير القتل بيد ان الملك كان يمنح العفو في بعض الظروف. اما سارق المواشي فكان يحكم عليهِ بأن يعوض عن سرقته بثلاثين ضعف مثلها وسارق النحل يحبس في مدة موثق اليدين

***

على ان هذه المواد ما لبثت ان تعدلت وخفت وطأة شدتها عما قبل مع تحوُّل الزمن. اما سائر المواد التي تتعلق بالسلطة والدين مباشرة فقد حوفظ على شدتها تعزيزاً لهيبة الحكومة التي كانت تمثل السلطة والدين. مثال ذلك: أن سرقة رمح بسيط من باب قصر الملك او معصية امر من اوامره كانت تعرِّض صاحبها للموت المحتم مع خراب بيتهِ وكان يذبح سارق الحقول المقدسة التي تخص الكهنة والمعابد ويقدم قرباناً للآلهة تكفيراً عما جنت يداه وكان يحكم على بعض العصاة ببتر عضو من اعضائهم تأديباً لهم كجدع الانف وصلم الاذن وهلم جرًّا

وكان مسموحاً للرجل ان يقتص من زوجتهِ الفاجرة وعشيقها بالقتل اذا باغتهما بمخدعه في حالة مشينة. اما اذا ابطأ بالاقتصاص فلا يجوز لهُ أن يتعمد قتلهما. ويسلِّم القانون الحق في بعض الحالات بالأسباب المخففة كما ينص بتطبيق اقصى درجات العقوبة في حالات أُخر خلافاً لسائر القوانين القديمة التي لم تكن تراعي الدقة في ظروف الجرائم الى هذا الحد. مثال ذلك: يحكم بالقتل على الرجل الذي يعتدي على عرض امرأة في جبل منقطع. أما الامرأة فتبرأ ساحتها باعتبار الاعتداء واقعاً عليها عنوة في محل بعيد عن الاستغاثة ولكنها تتعرض للقصاص عقاب المعتدي باعتبارها شريكة له بالاثم اذا وقع الامر في عقر دارها

***

وصفوة القول ان الحثيين مع شدة ميلهم الى التهتك كانوا يغارون على عرضهم غيرة قوية ويغالون في احترام قوانينهم لاعتقادهم انها موحى بها اليهم من الالهة ومن ميزات هذه القوانين انها كانت تأمر بالاحسان وتنهى عن المعاصي فيخال المرء عند تلاوتها ان بعض وصايا المسيح قد جاءت من اعماق القرون السحيقة

« في العدد التالي تتمة (الحضارة الحثية) وهي تتناول « الصناعة والتجارة والفنون »